السلوة

للأستاذ عبد الحميد العبادى

... وكان صاحبى كلما ثم تكاليف الحياة ، وضاق ذرعا بمعاشرة الناس ، التمس الراحة فيما تيسر له من أمور ثلاثة : العزلة ، والطبيعة ، والماضى البعيد .

أما العزلة فتعرغ عليه هدوء السر : وراحة البال . ثم هى فوق ذلك تهيء له أسباب التفكير فى نفسه ، وتعينه على أن يستعرض عمله ، وأن ينقده فى تؤدة وأناة . وصاحبى شديد الأخذ لنفسه ، مسرف فى تعهدها ومحاسبتها على الصغيرة والكبيرة ، فربما بات ساهرا متململا لبادرة بدرت منه ، أو زلة زلها لسانه . وهو بعد حريص على راحة ضميره وطمأنينة قلبه ، فان استطاع أن يقيم علاقته بالناس على أساس من العدل والانصاف فذلك ، وإلا فليكن المظلوم غير الظالم والمقتول غير القاتل . من أجل ذلك كانت العزلة كثيرا ما تفتح عليه باب ألم معنوى شديد . بيد أنه ألم فى شرعه محتمل مستعذب ، يصلى ناره ، راغبا وتخلص منها مغتبطا راضيا .

وأما الطبيعة ، فهى عنده الأم الرءوم : إليها يستريح ويسكن ، ومن جمالها ينهل ويعل . وفى حجرها تبعث نفسه المجهودة ، وتهيج عاطفته المكدودة . قد فتن بالطبيعة وحياة الطبيعة ، حتى ليكاد مزاجه يساير فصول العام إنبساطا وانقباضا ، وابتهاجا واكتئابا . ولولا بقية إيمان لانقلب صابئا يسجد للشمس عند شروقها وغروبها . ويهتف للقمر حين بزوغه وأفوله ، ويساهر النجوم والأفلاك من طلوعها لمغيبها . ولصار حلوليا يرى فى ثنايا الجبال وأعضام الأودية ، وفى الأجمة الملتفة والصحراء البلقع ، جنا تراءى له فى غلوائه وروحانه ، ولفتاته ولمحاته ، تحاول أن تستدرجه لتستهويه ، وتستميله لتفتنه . أجل ! ولولا أثارة من تماسك وتصاون ، لحنا على النبتة الواهية ، ولكبر للدوحة العالية ، ولأجهش للصخرة الراسية على ساحل البحر المتغلغل : ولا ندفع بقول الشعر يساجل الطير : لحنا بلحن ، وتغريدا بتغريد

على أن صاحبى ليس بالناسك ولا الزاهد . وقد يكون فى قرارة نفسه ، وحقيقة أمره ، مرحا طروبا ، ويود ، على شدة انصرافه عن الدنيا ، ألا ينسى نصيبه منها . ولكنه متزمت متشدد : يريد القوم صفوا من النفاق والدهان ، خلوا من الحقد والاضطغان .

فأما وقد أعجزه ذلك : فقد أصبح يرى حاله المنشودة فى الغابرين الأولين من أهل القرون الخالية : أصبح يراها فى الماضى البعيد . والماضى عنده عالم حافل بأعلامه وأحداثه ، زاخر بخيره وشره : لاعيب فيه سوى أن القدم قد صهره ومحصه . وأن الموت قد نمى خبثه عن طيبه : وزغله عن صميمه . فبدت فيه كل نفس على حقيقتها ، ومثل كل حادث على جليته . من أجل ذلك اصطفى صاحبى من الماضين خلانا وأصدقاء ، قد أصفاهم الود ، وأخلص لهم الحب ؛ وأن اختلفت الدار ، وبعد المزار : لقد أدرك صاحبى أن الموت حق والحياة باطل .

***

تكاثرت الهموم هذا الفيلسوف يوما ، فخرج من منزله وقد طفلت الشمس للغروب ، فما زال يتخير الأمكنة والبقاع ؛ حتى أوى الى صخرة قد استقبلت بحرا خضما ، واستديرت مرجا معشوشبا مدهاما ؛ وفى شرقيها المدينة هائجة مائجة ؛ صاخبة داوية ؛ وفى غربيها قصر عتيق مثلم الجنبات متداعى الأركان .

فأخذ الفيلسوف مجلسه من ذلك المنظر الفخم ؛ وجعل تارة يسرح الطرف فى البحر الواسع ؛ فتطير شعاعا فوق صفحته أشجانه ؛ وتذوب فى هدير أمواجه آهاته وأحزانه . وتارة يثنى نحو المرج يداعب منثور زهره ؛ ويتسمع سجع طيره : وأخرى يلتفت الى القصر يسأله أخبار من نزلوه ثم ارتحلوا عنه وكانوا أحاديث . حتى اذا مارتوى الفيلسوف من نسيم البحر : وعبير الزهر ، وحديث القصر ؛ تناول هراوته ، وزر معطفه ، وعاد يؤم المدينة متثاقل الخطى ، مرددا قول الشاعر :

أن الطبيعة أم تستجير بها
من جانب للبرايا غير مأمون !

عبد الحميد العبادى

أنجزت دار الكتب المصرية طبع

ديوان نابغة بنى شيبان

أحد فحول شعراء الدولة الاموية ، وهو كسائر مطبوعات الدار فى دقة التصحيح وجمال الطبع ، وثمن النسخة الواحدة منه ٤٠ مليما للجمهور و ٣٠ مليما لأصحاب المكتبات أو لمن يشترى عشر نسخ فأكثر . ويطلب من دار الكتب المصرية